

بلاد النهر



رسم

ماهر عبد القادر



دار المعارف

تأليف

دكتورة منى عثمان

المكتبة الخضراء للأطفال

٥١

بلاد النحر



رسوم

ماهر عبد القادر

تأليف

دكتورة منى عثمان

الطبعة الثانية



دار المعارف

0777777777 - 0777777777

فِي سَالِفِ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَانِ، وَفِي بُقْعَةٍ بَعِيدَةٍ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ،
وُجِدَتْ (بَلَدَةُ الْجَبَلِ)، كَانَتْ الْحَيَاةُ فِيهَا تَسِيرُ هَادئةً بِسَكَانِهَا الَّذِينَ
كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِرَعْدٍ مِنَ الْعَيْشِ، بِفَضْلِ حَاكِمِهِمُ الْعَادِلِ الَّذِي أَهْتَمَّ
بِشُؤْنِ الْبِلَادِ وَجَيْشِهَا، حَتَّى صَارَ مِنْ أَقْوَى الْجِيُوشِ، وَزِيَادَةً فِي
حَمَايَةِ بِلَادِهِ بَثَّ رَجَالَهُ وَأَعْوَانَهُ فِي الْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ لِيَعْرِفَ أَخْبَارَهَا
وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمَسَّ بِلَادَهُ بِسُوءٍ.

وَفِي كُلِّ عَامٍ، كَانَ الْحَاكِمُ يَسْتَعْرِضُ جَيْشَهُ بِغِيَّةٍ أَنْ يُشْجَعَ الْمُتَازِينَ،
وَفِي بَعْضِ الْأَسْتِعْرَاضَاتِ السَّنَوِيَّةِ، اسْتَطَاعَ أَحَدُ الْجُنُودِ أَنْ يَفُوزَ
بِالْمَرْكَزِ الْأَوَّلِ فِي كُلِّ الْمَسَابِقَاتِ مِمَّا أَثَارَ إِعْجَابَ الْحَاكِمِ بِهِ، فَطَلَبَ
هَذَا الْجَنْدِيُّ، وَمَا أَنْ اقْتَرَبَ مِنْ مَنْصَةِ الْمَلِكِ بِقَوَامِهِ الْمَشُوقِ وَعَضَلَاتِهِ
الْمُتَنَاسِقَةِ حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يَأْسَرَ الْحَاضِرِينَ بِذِكَائِهِ الْوَقَادِ الَّذِي يَشِعُّ مِنْ
عَيْنِيهِ . وَوَسَطَ كَلِمَاتِ التَّشْجِيعِ وَالِاسْتِحْسَانِ، مَنَحَهُ الْمَلِكُ رَتْبَةً كَبِيرَةً
بِالْجَيْشِ وَقَرَّبَهُ مِنْهُ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ مِنْ عَطْفِهِ وَعَطَايَاهِ الثَّمِينَةِ.

كَانَ هَذَا الْجَنْدِيُّ يُسَمَّى طَارِقَ وَكَانَ الْحَاكِمُ يُكَلِّفُهُ بِالْأُمُورِ الْمَهْمَةِ؛
لَأَنَّهُ كَانَ فَارِسًا مَغَوَّارًا لَا يَهَابُ شَيْئًا.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ اسْتَدْعَاهُ الْحَاكِمُ عَلَى عَجَلٍ، وَسَمَحَ لَهُ بِالْجُلُوسِ
قَرِيبًا مِنْهُ، وَكَانَ الْقَلْقُ بَادِيًا عَلَى الْحَاكِمِ، سَأَلَ طَارِقٌ نَفْسَهُ عَمَّا يَشْغَلُ
الْحَاكِمَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟! .

وَأخِيرًا رَفَعَ الْحَاكِمُ رَأْسَهُ وَصَوَّبَ نَظْرَاتِهِ لِعَيْنِي طَارِقَ وَسَأَلَهُ:



هل سمعت عن بلاد اسمها بلاد النهر؟! فأجاب طارق: نعم
يا سيدي.. إنها البلاد التي تقع في أقصى الشرق، ويفصلها عن بلدتنا
عدة بلاد.

هز الحاكم رأسه قائلاً: حسناً.. فأنت إذن تعرفها جيداً، ثم أردف
لقد علم رجالنا وأعواننا أن هذه البلاد تعدُّ العدة لغزو بلادنا.

انقبض قلب طارق ونظر إلى عيني الحاكم القلقتين فاستطرد الحاكم
قائلاً: وعلمنا أن بلاد النهر لها جيش قوي ولديها عدة وعتاد، ونحن
لن نقف مكتوفي الأيدي حتى يباغتتنا العدو في عُقر دارنا فالهجوم
خير وسيلة للدفاع.. ولذلك فكرت أن أرسلك إلى بلاد النهر متخفياً
لتعمل مع مجموعة من الرجال على إثارة الهرج والمرج في صفوف
جيش الأعداء حتى يوجلوا الهجوم قليلاً ليتسنى لنا إعداد العدة،
ولكن نريد معرفة الطريق الذي سيسلكونه إلينا؛ لأن ذلك سيساعدنا
في تدبير خطة للقضاء عليهم.

نهض الحاكم وأخذ يروح ويغدو بالغرفة ويديه معقودتين خلف
ظهره مُستغرقاً في تفكيره، وطارق يقف ويتابع الملك بعينه وذهنه
يتلاطم بالأفكار.

التفت الحاكم إلى طارق قائلاً: لقد أرسلنا أحد رجالنا
الذي يدعى عبود منذ سنين طويلة مُتكرراً في هيئة أهل تلك
البلاد واستطاع أن يعمل بُستانياً بحديقة القصر الملكي وهو من

أخلص رجالنا، وعلى اتصال دائم بنا بالرسائل التي يبعث بها
عن طريق الحمام الزاجل.. وقد أرسل إلينا رسالة تحتوي على
معلومات وخريطة تحدد لك النقطة التي ستدخل منها جيوش
العدو حديقة القصر. انصرف الآن لكي تعد نفسك لمغادرة البلاد،
وسيكون أحد رجالي معك؛ ليشرح لك كل دقائق الأمور ويمدك
بكل ما يلزمك.

قال طارق بحماسة المعهود: إن رُوحى ملكاً لبلادى ولن أتوانى يوماً
عن تقديمها فداءً للوطن. وأدى التحية العسكرية وانصرف. وما أن
هم بفتح الباب حتى فتح وحده، ووجد رجلاً ذا لحية طويلة مدببة
اصطحب طارقاً معه لتجهيز كل شيء.

وما هي إلا أيام معدودات حتى كان طارق ملماً بكل صغيرة وكبيرة
عن عادات وتقاليد أهل تلك البلاد، واصطحبه الرجل ومعه بعض
الحرس إلى شاطئ النهر حيث يوجد قارب صغير قوي وضع فيه
كل ما يحتاج إليه، وفي القارب رجل عجوز يجلس ممسكاً بالمجدافين.
صاح ذو اللحية المدببة، اهتم به يا عم عتيق وبودّ ظاهر التفت إلى
طارق مازحاً: لا عليك من وجهه المتغضن وشعره الأشيب، فقد صرع
ذنباً بذراعيه منذ أيام.

ضحك الرجل العجوز فخوراً بنفسه، وارتفعت ضحكات الرجال
الواقفين.. ثم صافحه الرجل وشدّ على كفه بحرارة قائلاً:



لا تنس أن مصير الوطن يتعلق بنجاحك. كما أن حياتكم تهمنا
جداً.. أجابه طارق بثقة:

إن شاء الله سنكون عند حسن الظن وآمل ألا تكفوا عن الدعاء لنا
بالتوفيق، ثم قفز إلى القارب وبدأ العجوز بالتجديف وهم واقفون
يلوحون لهما حتى ابتعد القارب في عرض البحر.

زفر طارق زفرة عميقة واسترخى في جلسته ونظر إلى عم عتيق
فوجدته يبتسم له وهو يجدف فابتسم بدوره.. بادره عم عتيق قائلاً:
مهمتك صعبة ولكن الجميع يثقون بك ويتوقعون لك النجاح.. أجابه
أتمنى ذلك يا عم عتيق.

أخذ عم عتيق يجدف وهو شارد ثم قال له: قد علمت يا بني
أن بلاد النهر محاطة بالنهر من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة
فصحراء شاسعة فيها قوات كبيرة من الجيش وسأصحبك إلى مكان
ليس ببعيد عن الشاطئ، حيث يوجد نتوء صخري على شكل رأس
ثور ذي قرنين، وعندما تهب الرياح خلال فتحات هذا النتوء، يصدر
منه صوت كخوار الثور مما زرع الفزع في قلوب الناس، وانتشرت
الخرافات والشائعات عن الجان والشياطين التي تسكن هذا المكان،
ولذلك لا يجرؤ أحد من أهل تلك البلاد على الذهاب إليه أو القرب
منه.. ولذلك فهو أمان وإن شاء الله سنصل ليلاً ليساعدنا الظلام على
التخفي عن أعين الحراس المنتشرة على الشاطئ وهناك سأنتظر



وتستطيع - أنت - السباحة بمفردك لتصل إلى الشاطئ وتكمل
باقي الخطة مع صديقنا عبود.

استغرقت الرحلة أيامًا طويلة. وكانوا يتناولون طعامهم اليابس
المكون من الخبز واللحم المقدد والفواكه المجففة.. فبذلك تكون وجبتهم
متوازنة من المواد النشوية والبروتينات والسكريات، وكان طارق وعم
عتيق يتناوبون التجديف والراحة.

واستمر الحال على نفس المنوال وهما لا يكفان عن الصلاة والابتهاج
إلى الله ليساعدهما في إنجاز المهمة.

وأخيرًا رسا القارب بمحاذاة النتوء الصخري، فدار عم عتيق
نصف دورة للخلف إلى تجويف في الشاطئ، أخفى القارب فيه
وربطه جيدًا ثم ترجل حاملًا مصباحًا غير مضيء، وسار في طريق
مُلتف يعلمه جيدًا وطارق يتبعه صامتًا حتى وصل إلى نقطة معينة
توقف عندها، وأشعل المصباح بعود ثقاب. تبدد الظلام الدامس فإذا
هما في بقعة فسيحة مثل قاعة سقفها مرتفع وبه فجوات كثيرة تسمح
بتجديد الهواء، التفت طارق معانقًا عم عتيق وطلب منه مداومة
الدعاء له ليعود - سالمًا - مع عبود.. وما هي إلا ثوان وكان طارق
يسبح تحت سطح الماء قاصدًا النقطة التي حددها عبود ثم أخرج رأسه
وتلفت بحذر وقفز بخفة إلى الشاطئ متسترًا بالظلام.

وبالقرب من الشاطئ كانت هناك الشجرة الكبيرة التي وصفها



عبود في رسالته.. وعندما بحث في فرعها المتدلى وجد ملابس على طراز ملابس أهل البلاد، خلع ثيابه المبللة وارتدى الملابس الجافة على عجل، وانطلق باحثاً عن الكوخ الخشبي حيث ينتظره عبود.

وبينما هو ينتقل بحذر سمع صوتاً خافتاً لنحيب امرأة. تيقظت شهامتة وأخذ يبحث سريعاً عن مصدر الصوت حتى وصل إلى بناء صغير بطرف البستان يكاد يختفي خلف الأشجار الكثيفة.. تسلل بخفة وأطل بحذر من نافذة مفتوحة فشاهد منظرًا عجيبًا.. كانت هناك امرأة شابة جميلة شعرها الذهبي مُسترسِل، تجلس على حافة فراش بسيط، وأمامها تابوت له واجهة زجاجية يظهر من خلفها وجه ميت محنط. انقبض قلب طارق وأرهف السمع فلم يميز إلا كلمات بسيسة وسط هذا النحيب، وفهم أن هذه المرأة تبكي زوجها الذي يرقد داخل التابوت.. جاءت الوصيفة من الداخل بقوامها البدين حاملة بين يديها بعض طعام، وربتت على كتف الشابة برفق قائلة: سيدتي الأميرة لا بد أن تتناولين شيئاً من الطعام، لقد ظللت على هذا الحال يومين كاملين وأخشى على جسدك الهزيل من الانهيار.

جاءت كلمات الأميرة مُتقطعة يتخللها نحيبها دعيني يا زهرة. وضعت الوصيفة صينية الطعام فوق مائدة صغيرة بجوار الفراش، ثم جلست بجوار الأميرة وأمسكت بكفها بين يديها وقالت بحنان: كنت دوماً تنادينني أمي، والآن بعد أن كبرت وصرت ملكة لبلاد



الشلال تُناديني باسمي.. التفتت الأميرة إلى زهرة وطالعتها بعينين باكيتين، ثم ارتمت فوق صدرها وانخرطت في نوبة من البكاء الحار، حتى تقطعت نياط قلب طارق لهذه الفراشة الجميلة التي تكابد من آلام الحياة ما لا تطيق.

استمرت الخادمة تمسح رأس الأميرة، وتربت على ظهرها وتلاطفها. أما طارق فقد دفعه الواجب الوطني إلى البحث عن كوخ عبود حتى وصل أخيراً إلى عدة أكواخ خشبية في الطرف الآخر من البستان، وأمام أحد هذه الأكواخ كانت هناك جرة ماء مغطاة مثبتة فوق حامل معدني.. تلفت حوله، ثم طرق الباب الخشبي بحذر طرقتين متتاليتين، ثم طرقة واحدة فقط.. سَمِعَ صوتاً من وراء الباب يسأل هل الطارق ظمان؟ أجاب طارق: نعم والجرة خالية. كانت هذه كلمة السر، ثم فتح الباب، واندفع طارق بسرعة للداخل، وأوصد الباب. ظل طارق وعبود خلف الباب برهة يُرهبان السمع وأنفاسهما تكاد تتوقف من فرط الانفعال. فلما أحسّا بالأمان، تعانقا وأخذا يتبادلان الأخبار والأسئلة بصوت خافت.

وما هي إلا ساعة من الزمن حتى بزغ الفجر وبدأت أنواره الخافتة تتسلل وتنتشر على الكون الفسيح.. انصرف عبود لعمله تاركاً طارقاً حتى لا يساوره شك.

وفي المساء عاد عبود - محملاً - بأطيب الطعام من مطبخ القصر،

وَمَا أَنْ أَغْلِقَ بَابَ الْكُوخِ خَلْفَهُ حَتَّى ظَهَرَ طَارِقٌ مِنْ خَلْفِ الْخَزَانَةِ،
وَتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ قَائِلًا: ظَنَنْتُكَ أَحَدَ الْغُرَبَاءِ.. ابْتَسَمَ عَبُودٌ وَضَرَبَ كَتْفَهُ
بِخَفَةِ قَائِلًا بِهِمْسٍ: لَا تَخَفْ لَا يَأْتِي أَحَدٌ إِلَى كُوخِي.. أَشَارَ طَارِقٌ إِلَى
الْخَزَانَةِ وَقَالَ: هُنَا تَحْتَفِظُ بِالْحَمَامِ الزَّاجِلِ.. ضَحِكَ عَبُودٌ وَهُوَ يَفْرُدُ
مَفْرَشًا صَغِيرًا عَلَى الْأَرْضِ نَعَمٌ وَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ هَذَا السِّرَّ إِلَّا أَنْتَ الْآنَ..
وَتَعَاوَنَا عَلَى تَجْهِيزِ أَطْبَاقِ الطَّعَامِ عَلَى الْمَفْرَشِ..
ضَحِكَ طَارِقٌ وَقَالَ: مِنْذُ تَرَكْتُ بِلَادِي لَمْ أَحْظَ بِوَجِبَةٍ لَذِيذَةٍ كَهَذِهِ.
رَدَّ عَبُودٌ: أَعْلَمُ ذَلِكَ يَا صَدِيقِي لِذَلِكَ أَتَيْتُكَ بِكُلِّ مَا اسْتَطَعْتُ حَمَلَهُ..
ثُمَّ تَنَاوَلَ قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنَ اللَّحْمِ الْمَشْوِيِّ وَوَضَعَهَا فِي صَحْنِ طَارِقِ
وَقَالَ: سَمِعْتُ الْيَوْمَ أَخْبَارًا هَامَّةً. تَبَلَّغَ طَارِقٌ طَعَامَهُ بِسُرْعَةٍ نَاطِرًا
إِلَيْهِ يَسْتَحِثُّهُ الْمُضَى فِي الْحَدِيثِ.. اسْتَطَرَدَ عَبُودٌ وَهُوَ يَصُبُّ كُوبًا
مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ قَائِلًا: أَحَدُ أَصْدِقَائِي الْجُنُودِ يَشْكُو مِنْ كَثْرَةِ التَّدْرِيْبِ
تَمْهِيْدًا لِلْغَزْوِ الَّذِي سَيَجْتَا حُ بِلَادِنَا - نَحْنُ - قَرِيْبًا.. وَقَدْ طَلَبَ مِنْ
الطَّاهِي تَجْهِيزَ بَعْضِ اللَّحْمِ الْمَقْدَدِ سِرًّا لِيَخْفِيهِ بَيْنَ طِيَّاتِ مَلَابِسِهِ؛
لَأَنْهُمْ سَيَسْلُكُونَ طَرِيقَ الصَّحْرَاءِ وَيَخْشَى مِنْ قِلَّةِ الطَّعَامِ.. كَمَا أَنَّ كَبِيرَ
الْوَزَرَاءِ فِي حَالَةٍ تَذْمُرٍ شَدِيدٍ وَلَا يُعْجِبُهُ شَيْءٌ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَاكِمِ،
وَلَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا الْإِنْصِيَاعَ لِأَوَامِرِهِ كَارَهَا مُنْتَظِرًا الْفُرْصَةَ الْمَوَاتِيَةَ
لِانْتِزَاعِ الْحُكْمِ مِنْهُ.

لَمَعَتْ عَيْنَا طَارِقِ بِفَرْحٍ وَقَالَ: إِذْنًا عَلَيْنَا الْعُودَةَ بِسُرْعَةٍ لِإِخْبَارِ الْحَاكِمِ

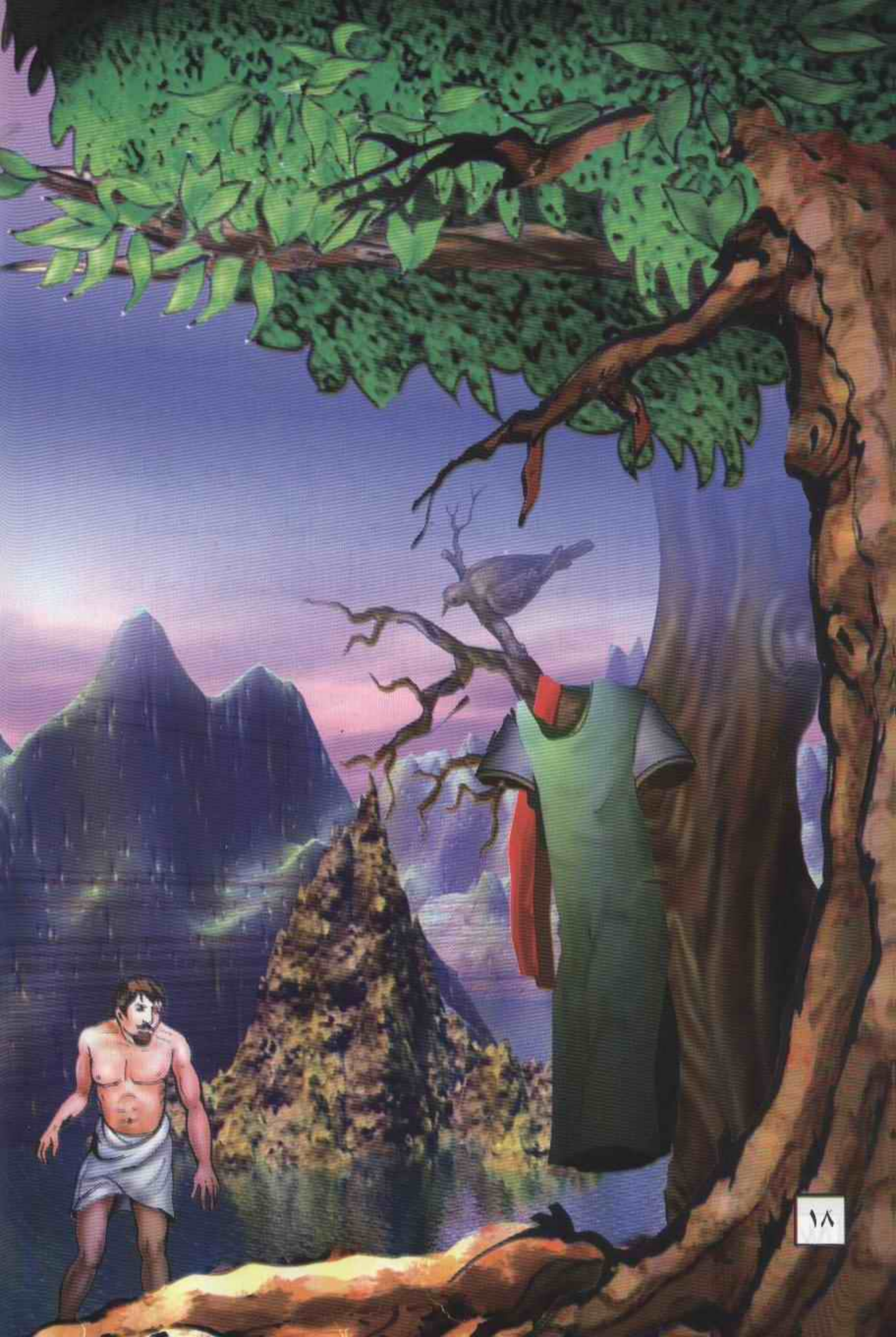
لإعداد كمين لهم بالصحراء.. ولكنه تذكر شيئاً فجأاً.. أخبرني
يا أخي.. ما قصة هذه السيدة الباكية أمام التابوت؟
ضحك عبود ضحكة مكتومة وأشار بيده باستخفاف: إن حاكم هذه
البلاد شيطان مكر.. فهذه السيدة أخته وكان زوجها مريضاً منذ
صغره ويتوقع له الجميع الموت ومع ذلك زوجها له دون إذنها؛ لأنه
حاكم بلاد الشلال التي تقع شمالاً. والآن وبعد موته ضم بلاد الشلال



لببلاد النهر. أما أخته التي أصابها الكمد والحزن الشديد بعد موت زوجها فلم تكف عن البكاء وتظاهر هو بمشاطرتها أحزانها، فنقل إقامتها لهذا البناء المتواضع، ووضع لها جثمان زوجها المحنط في التابوت ذي الواجهة الزجاجية ليتسنى لها أن تطالعه كل يوم بعد أن أقنعها أن الوفاء لا يكون إلا بهذه الطريقة، وطبعاً.. يعلم الجميع أنه أراد بذلك إبعادها حتى لا تطالب بعرش زوجها المتوفى. ولكي يستولي هو على كل شيء.

التفت عبود لطارق وهما يللمان الأطباق الفارغة: علينا بالعودة غداً فجرًا وسأمهد أنا طريق الفرار أولاً ثم أعود إليك حتى نكون في أمان من أعين الحرس.. ونام الاثنان وكل واحد يعتمل في ذهنه أفكاراً متلاحقة.

ومع أول خيوط الفجر انطلق عبود إلى البستان متظاهراً بتأدية عمله، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى عاد لاهثاً تكاد عيناه تخرجان من محجريهما، وأخبر طارقاً بكلمات سريعة أن أحد المزارعين وجد ملابسه المبتلة عند الشجرة الكبيرة وسيذهب ليبلغ رئيس الجند، فالجميع يعلم أن هذا هو الزى الوطني لبلاد النهر ومعنى ذلك أن هناك بعض الجواسيس بالقصر.. وجم طارق ولم ينطق بشيء. قال عبود بسرعة.. لا تقف هكذا سيقطعوننا إرباً إرباً، واستطرد وهو يدفعه برفق إلى الباب، اهرب قبل أن يأتي الحرس وينكشف أمرنا.



انطلق طارق ودقات قلبه تتسارعُ وما أن اقترب من حافة النهر حتى شاهد من بعيد مجموعة من الحرس ترتفع أصواتهم ويشيرون بأيديهم إلى الشجرة الكبيرة.. فانطلق يتوارى خلف أشجار البستان ولم يدر بنفسه إلا وهو يقفز داخل غرفة الأميرة الباكية.. ولحسن الحظ كان الناس قد غلبها فلم تره وهو يختفي أسفل سريرها.

استيقظت الأميرة على الحركة اليسيرة وصاحت: مَنْ؟ مَنْ؟ هل أحدٌ بالغرفة؟ ساد الصمت وقلب طارق يكاد أن ينخلع رعباً، جاءت الخادمة البدينة مُسرعةً تسألها بصوت اختلط فيه النعاس بالخوف سيدتى الأميرة: ماذا حدث؟.. تلفتت الأميرة تجول بنظراتها في الهواء حولها وقالت بهمس: لا بد أن روحه معنا الآن بالغرفة ثم انخرطت في بكاء عنيف.. تنفس طارق الصعداء وظهر الامتعاض على وجه زهرة وجلست بجوارها على حافة الفراش، فهبط الفراش بقوة لأسفل فوق رأس طارق الذى كاد أن يصرخ.. يا حبيبتي لم يجرؤ أحدٌ على إخبارك بشيء بشأن زوجك المتوفى خوفاً عليك ولكنى سأخبرك الآن بكل شيء خوفاً عليك أيضاً، لأنك تذبلين كل يوم حزناً على إنسان أخفى عنك حقيقته الخبيثة!!..

نظرت الأميرة بحدة إلى زهرة وصاحت: تبال لك لا تتكلمى عنه بهذه الطريقة.. استطردت زهرة غير عابئة.. إنه كان يخطط للخلاص منك والزواج بابنة ملك البلاد المجاورة، ليتسنى له ضمها إلى

بِلاَدِهِ وَتَأَكِّدِي بِنَفْسِكَ إِنْ كُنْتِ لَا تُصَدِّقِينَنِي.. اسْأَلِي أَيَّ
جُنْدِيٍّ مِنْ الْحَرَسِ.

جَنَّ جُنُودَ الْأَمِيرَةِ وَانْدَفَعَتْ لِلنَّافِذَةِ
تَسْتَدْعِي أَحَدَ الْجُنُودِ لِدُخُولِ حَجْرَتِهَا
ثُمَّ صَرَخَتْ فِيهِ بِأَعْلَى صَوْتِهَا.. هَلْ
سَمِعْتَ شَيْئاً عَنْ مُؤَامِرَةٍ كَانَتْ تُدْبِرُ
لِلْخِلَاصِ مِنِّي مِنْ قَبْلِ هَذَا الْمَيِّتِ؟.



تَلَعَّثَمَ الْجَنْدِيُّ وَزَاغَتْ نَظْرَاتُهُ بَيْنَ الْأَمِيرَةِ وَزَهْرَةَ وَأَخِيرًا قَالَ:
نَعَمْ يَا مَوْلَاتِي.. وَكَانَ النَّاسُ جَمِيعًا يَصِفُونَهُ بِالْغَبَاءِ وَالْخِسَّةِ،
فَابْنَةُ مَلِكِ الْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ لَا تَصِلُ إِلَى نَصْفِ مَرْتَبَتِكَ مِنَ الْجَمَالِ
وَحَسَنِ الْأَدَبِ.

انْهَارَتِ الْأَمِيرَةُ فِي جِلْسَتِهَا عَلَى الْكُرْسِيِّ مُتَمَتِّمَةً، إِذْ نَ الْحَاكِيَةُ
صَاحِيحَةً. تَلَفَّتِ الْجَنْدِيُّ حَوْلَهُ بَارْتَبَاك
ثُمَّ انْصَرَفَ مُسْرِعًا.. اقْتَرَبَتْ مِنْهَا زَهْرَةُ



وقالت قد توليت تربيته منذ أن توفيت والدتك رحمها الله وأنت طفلة رضية، ويعلم الله كم أحبك وأشعر بأنك ابنتي وفلذة كبدي.. ثم مسحت بإحدى كفيها الدموع المنحدرة على وجنة الأميرة.. كان يمطر بكلماته المعسولة تملقاً لأخيك الملك، ولم تعلمي أدنى شيء عن سياسته الداخلية لبلاد الشلال المغلوبة على أمرها.. وبدلاً من أن تصلح ما أفسده على مدى سنوات انزويت بين هذه الجدران، وحبست نفسك مع الأوهام تاركة أخاك الطاغى يضم بلاد الشلال لبلاد النهر، ويعيثُ فساداً فيهما أكثر من هذا الميت المائل أمامنا.

نظرت الأميرة بوهن متوسلة إليها، أرجوك يا زهرة.. يا أمي.. يا حبيبتي.. أنا لا أستطيع التحمل أكثر من هذا.. ردت زهرة بغضب: بل تستطيعين وأنا لو تركتك تستسلمين بهذا الشكل المهين سوف يقضى أخوك عليك كما قضى من قبل على أخيه الأكبر لتظل الساحة خالية له. تقلص وجه زهرة وصاحت في زهول ماذا؟ ماذا قلت؟.. هل أخى هذا هو الذى قضى على أخى الأكبر؟!..

أجابت زهرة فى أسى نعم يا حبيبتي.. أنت ملاك طاهر لا تدريين شيئاً عما يحدث فى الخفاء.. كنت طفلة صغيرة عندما مرض أخوك الأكبر بمرض يسير وأصابته حمى، وكان أحد الخدم الأوفياء يلازم المريض دائماً حتى يلبي احتياجاته.. وذات ليلة طلب منه كوباً من العصير فذهب لإعداده وعند عودته أراد ألا يزعج المريض لعله نائم

فدخل بخفة ومن خلف الستائر شاهد أخاك الحاكم مُطبقاً على عنقه
حتّى أزهق رُوحه، فتسلل الخادم هارباً وأتى إلى المطبخ في حالة
هلع وكنتُ بالمطبخ في ذلك الوقت من الليل أُجهزُ لك الحليب، فأسرّ
إليّ بما رأى فنصحتَه بإطباق شفّتيه وإلا سنواجه نفس المصير،
وفي الصباح أشيع الخبر أن وليّ العهد مات بتأثير الحمى. فصدّقه
الجميع.. ظلّت الأميرة واجمةً وزهرةً منكسة رأسها للأرض، ويعتري
وجهها الأسى، وأخيراً تكلمت الأميرة.



قالت: بالأمس غلبني النعاسُ ورأيتُ رؤيَةً جعلتني أفرحُ. نظرتُ إليها زهرةً باهتمامٍ وقالت مُسرعةً: (ماذا رأيتِ).. أسندتِ الأميرةُ رأسها لظهر الكرسي ونظرتُ للأمام وقالت: رأيتُ أننى أتقدمُ من أخي وهو جالسٌ على عرشه وحينما اقتربتُ منه سقطَ خاتمي من إصبعي فانحنيتُ لالتقاطه.. فرأيتُ ذيلًا يتدلى من تحت طرف ثوب أخي وله أرجلٌ ومخالبٌ كالثعلب.. اعترانى خوفٌ شديدٌ منه ونظرتُ مليًا لوجهه فرأيتُهُ يتقلصُ ويتغيرُ حتى صارَ ثعلبًا.. ركضتُ.. ركضتُ..



خلفى يريد أن ينقض على فانشقت الأرض عن جندى جميل الطلعة
غريب الهيئة والملابس، اسقل سيفه وقتل الثعلب، واستيقظت من
نومى فزعة.. هزت زهرة رأسها بأسى قائلة رأيت يا ابنتى.. إن
الله يُحذرك.. ثم أشارت بضيق للتأبوت.. والجثمان هذا لا بد أن
يواريه التراب.. هزت الأميرة رأسها مُتمتمة نعم نعم لا بد أن أنهض
وأكون قوية سأرحل إلى بلاد الشلال، وأشغل نفسى بهموم شعبي..
ونهضت مُسرعة لا بد أن أغتسل وأبدل ملابسى كى أظهر بمظهر



الملك، وسأذهب الآن لأخي لأستأذنه في السفر واستلام مقاليد الحكم،
فنهضت زهرة تلحقها إلى الحمام..

أخيراً تنفس طارق الصعداء.. فما أن انصرفنا معاً إلى الخارج حتى
سارع بالاعتسال، وشرب الماء البارد، وتناول الطعام.. وما أن أتاه من
بعيد صوت الأميرة وخادمتها - تقتربان - حتى عاد للاختفاء أسفل
الفراش مرة أخرى.. وما هي إلا ثوان حتى كانت الأميرة جالسة على
حافة فراشها، تعاتب خادمتها غاضبة. أرأيت يا زهرة أخي طيب
جداً ولم يمانع من إعطائي حكم بلاد الشلال، وسيدفن زوجي غداً كما
أنه سيعطيني أيضاً نصيبي من ميراث أبي دون أن أطلبه به.

تنهدت زهرة مفكرة.. إذا سارت الأمور كما قال فلن أسامح نفسي
أبداً على تصديق هذا الخادم الذي قال إنه شاهد جريمة القتل بنفسه،
ولكن عليك أن تأكلي الآن.. وتوقف الكلمات في حلقها.. التفتت
إليها الأميرة ماذا يا زهرة؟ أشارت الخادمة إلى مائدة الطعام وقالت:
من أكل الطعام هل دخل هنا أحد؟ أشارت الأميرة بضيق ومن عساه
أن يدخل أيتها الحمقاء لعلها قطعة شاردة.. لا عليك أنا لا أستطيع أكل
الكثير، وأشارت بيدها قائلة هناك على الرف توجد علبة بها كعك
أحضري لي بعضاً منها.

واكتفت الأميرة ببعض الكعكات، وشربت قدحاً من الحليب..
أما زهرة فحملت الصينية للداخل وهي في حيرة من أمرها.

مَرَّ اليَوْمُ ثَقِيلًا عَلَى طَارِقٍ وَهُوَ مَخْتَبِيٌّ أَسْفَلَ الْفِرَاشِ، وَمَنْ حِينَ
إِلَى آخِرٍ تَجَلَسُ زَهْرَةٌ بِجَوَارِ الْأَمِيرَةِ فَتُصِيبُهُ ضَغْطَةٌ قَوِيَّةٌ فَوْقَ رَأْسِهِ
بِتَأْثِيرِ وَزْنِهَا الثَّقِيلِ، وَالْأَمِيرَةُ لَا تَكْفُ عَنْ تَعْنِيفِهَا لظَنِّهَا السَّيِّئِ
بِأَخِيهَا الْمَلِكِ.

جَنَّ اللَّيْلُ عَلَى ثَلَاثَتِهِمُ الْأَمِيرَةُ مُسْتَغْرَقَةٌ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ، بَعْدَ
لَيَالٍ قَاسَتْ فِيهَا السَّهَادَ وَالْأَرْقَ.. وَزَهْرَةٌ عَلَى أَرِيكَةٍ فِي أَقْصَى الْغُرْفَةِ
يَتَعَالَى غَطِيطُهَا، وَطَارِقٌ أَسْفَلَ الْفِرَاشِ أَخَذَتْهُ سَنَةٌ مِنَ النَّوْمِ وَهُوَ يُفَكِّرُ
فِي عَمِّ عَتِيقٍ وَكَيْفِيَّةِ الْإِتِّصَالِ بِعَبُودٍ لِلْفِرَارِ بِسُرْعَةٍ.. وَفَجْأَةً انْتَبَهَ طَارِقٌ
عَلَى صَوْتِ فَتْحِ الْبَابِ بِهَدْوٍ، وَعِنْدَمَا نَظَرَ مِنْ مَخْبِئِهِ شَاهَدَ قَدَمَيْنِ
تَرْتَدِيَانِ الْجَوَارِبَ فَقَطَّ، تَقْتَرِبُ بِخَفَةٍ مِنْ فِرَاشِ الْأَمِيرَةِ، تَحْفَزُ طَارِقٌ
لِلْهَجُومِ، وَلَمْ يَدْرِ أَيُخْرِجُ الْآنَ لِمُوَاجَهَةِ هَذَا الْمَجْهُولِ أَمْ يَنْتَظِرُ؟.

فَمَنْ الْمَوْكِدِ أَنَّهُ يَرِيدُ شَرًّا بِالْأَمِيرَةِ، لَمْ يَنْتَبِهْ هَذَا الْمَجْهُولُ فِي الضَّوِّ
الضَّعِيفِ إِلَى الطَّائِلَةِ الصَّغِيرَةِ فِي مُنْتَصَفِ الْغُرْفَةِ وَفَوْقَهَا عُلْبَةٌ
الْكَعْكِ الزَّجَاجِيَّةِ فَاصْطَدَمَ بِهَا، وَتَهَشَّمتْ عَلَى الْأَرْضِ بِاعْتِهَ صَوْتًا
أَيَقِظُ الْأَمِيرَةَ، أَمَّا زَهْرَةٌ فَتَقَلَّبَتْ عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ وَغَمَّغَمَتْ وَكَأَنَّهَا
فِي حَلْمٍ.

صَاحَتِ الْأَمِيرَةُ أَخِي.. مَاذَا أَتَى بِكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ؟ اقْتَرَبَ مِنْهَا
أَكْثَرَ وَجَلَسَ بِجَوَارِهَا عَلَى حَافَةِ الْفِرَاشِ وَمَدَّ إِلَيْهَا ذِرَاعِيهِ وَقَالَ:
لَأَقْضِيَ عَلَيْكَ أَيْتَهَا اللَّعِينَةَ كَمَا قَضَيْتَ عَلَى أَخِيكَ الْأَكْبَرَ مِنْ قَبْلِ..

أتريدين أيتها الحشرة أن تأخذي مني بلاد الشلال.. لن أسمح لأحد
أبدًا أن يهدم المجد الذي رسّمته لنفسِي.

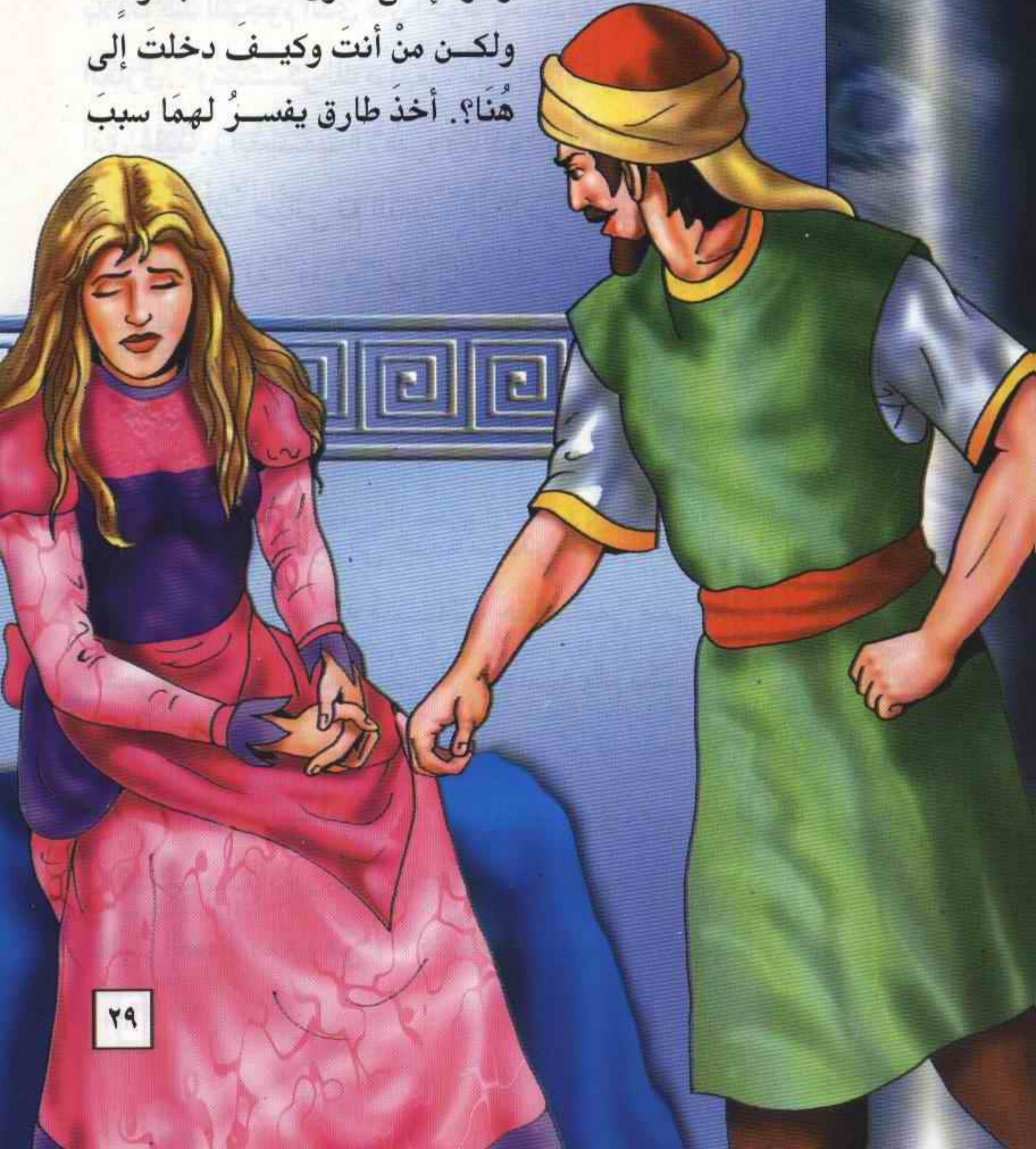
في هذه الأثناء كان طارق يزحف بخفة من تحت الفراش ممسكًا
بخنجره، حتّى صار خلف الحاكم مباشرة، فعاجله بطعنة قاتلة قبل
أن يصل بيديه إلى أخته التي قفزت صارخة وقد تملكها الرعب.



استيقظت زهرة التي
وقفت مشدوهة لا تعي من
الأمر شيئاً، تشبّثت الأميرة بزهرة
وصرخت أختي كان يريد قتلِي كما قتل
أختي الأكبر.. وكانت زهرة تنقل نظراتها بين طارق الواقف أمامها

والخنجر في يده وبين الملك المنكفي فوق الفراش وقد فارق
الحياة.

أطالت الأميرة النظر إلى طارق، وصاحت أنه هو يا زهرة
هو الجندي الذي رأيته في منامي يقتل الثعلب. التفتت
زهرة إلى طارق تسأله بخوف،
ولكن من أنت وكيف دخلت إلى
هنا؟ أخذ طارق يفسر لهما سبب



وَجُودِهِ هُنَا وَمَعَ أَوَّلِ خِيوطِ الْفَجْرِ كَانَ قَدْ أُتِمَّ قِصَّتَهُ.

عَلَا الْوَجُومُ وَجَهَ الْأَمِيرَةَ، وَاسْتَغْرَقَتْ فِي تَفْكِيرٍ وَحِيرَةٍ ثُمَّ قَالَتْ لَهُ إِذَنْ فَأَنْتَ مِنْ جُنْدِ الْعَدُوِّ.. انْحَنِ طَارِقُ أَمَامَهَا بِأَدَبٍ وَقَالَ أَنَا يَا سَيِّدَتِي لَسْتُ عَدُوًّا وَلَا وَطَنِي عَدُوٌّ لِأَيِّ بَلَدٍ، فَنَحْنُ مُسَالِمِينَ وَكَانَ مَقْصِدُنَا فَقَطِ الدِّفَاعَ عَنْ بِلَادِنَا ضِدَّ الْهَجُومِ الَّذِي كَانَ أَخُوكَ يَخْطِطُ لَهُ، وَأَبَدًا لَنْ نَقُومَ بِدَوْرِ الْمُهَاجِمِ الْغَازِي.. وَسَنَشْكُرُ لَكَ صَنِيعَكَ عَلَى إِكْرَامِنَا وَتَرْكِنَا نَرْحَلُ دُونَ تَوْقِيعِ أَيِّ أَذَى عَلَيْنَا.. ابْتَسَمَتِ الْأَمِيرَةُ وَقَالَتْ: وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ أُعَاقِبَكَ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي ثُمَّ التَفْتَتُ إِلَى زَهْرَةَ.. هَيَّا يَا زَهْرَةَ أُسْرِعِي بِإِحْضَارِ طَعَامٍ وَشَرَابٍ لَهُ، فَقَدْ مَرَّ يَوْمٌ كَامِلٌ دُونَ أَنْ يَأْكَلَ شَيْئًا.

جَلَسَتِ الْأَمِيرَةُ عَلَى كُرْسِيٍّ وَقَالَتْ: كُنْتُ دَائِمًا أَشْعُرُ بِأَنَّيَ ضَعِيفَةٌ وَأَخَافُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَكِنْ فِي وَجُودِ جُنْدِي بِاسْمِ مِثْلِكَ أَشْعُرُ أَنَّيَ فِي أَمَانٍ.

تَمْتَمَ طَارِقٌ سَاكُونًا فِي خِدْمَةِ سَيِّدَتِي الْأَمِيرَةَ دَائِمًا إِنْ أَرَادَتْ. نَظَرَتْ إِلَى عَيْنَيْهِ نَظْرَةً عَمِيقَةً مُتَسَائِلَةً حَقًّا سَتَبْقَى مَعِي دَائِمًا. ارْتَبَكَ طَارِقٌ وَشَعَرَ بِالدَّمَاءِ سَاخِنَةً تَنْدْفَعُ إِلَى وَجْنَتَيْهِ وَلَمْ يَشْعُرًا بِزَهْرَةَ الَّتِي وَقَفَتْ تَنْظُرُ بِضَيْقٍ وَهِيَ تَحْمَلُ صَفْحَةَ الطَّعَامِ ثُمَّ تَنْحَنِحَتْ: مَوْلَاتِي. التَفْتَتِ الْأَمِيرَةُ آهَ ضَعِيفَهَا أَمَامَهُ يَا زَهْرَةَ، هَيَّا تَنَاوَلِ طَعَامَكَ فَأَجَابَهَا بِلُطْفٍ: إِنْ كُنْتُ سَتَأْكَلِينَ مَعِي فَلَا مَانِعَ عِنْدِي. ضَحَكَتِ الْأَمِيرَةُ وَبَدَأَتْ فِي تَنَاوُلِ الطَّعَامِ مَعَهُ وَهِيَ لَا تَكْفُ عَنِ الْحَدِيثِ وَالْأَسْئَلَةِ وَهُوَ يَجِيبُهَا،

وقد تبدت السعادة على مَحِيَّاهِ حَتَّى تَسَلَّتْ أَشْعَةُ الشَّمْسِ عَلَى الْكُونِ
الْفَسِيحِ. وَهَنَا كَانَ التَّعَبُ وَالسَّأْمُ قَدْ سَيَّطَرَ عَلَى زَهْرَةَ فَصَاحَتْ أَلَا
تَشْعُرَانِ بِخَطُورَةِ الْمَوْقِفِ الْآنَ؟ نَهَضَ طَارِقٌ قَائِلًا: لَا عَلَيْكَ سَنَبْدُ الْآنَ..
وَلَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نَصَلَ إِلَى عِبُودٍ وَإِلَى الْمُخْلِصِينَ مِنَ الْخَدَمِ الَّذِينَ تَثْقِينِ
فِيهِمْ جَدًّا حَتَّى لَا نَتْرِكَ الْمَجَالَ لِكَبِيرِ الْوُزَرَاءِ فَيَعْمَلَ عَلَى اقْتِنَاصِ
الْفُرْصَةِ وَيَفْرُضَ نَفُوزَهُ عَلَى الْبِلَادِ.. وَالتفت إلى زهرة هيا يا زهرة
أَسْرِعِي إِلَى الْقَصْرِ وَاجْمَعِي كُلَّ مَنْ تَثْقِينِ فِيهِمْ وَأَخْبِرِيهِمْ بِضُرُورَةِ
التسلح بالخنجر والسيوف، وسنرى كيف ستسير معنا الأمور.

وَمَا أَنْ خَرَجْتَ زَهْرَةَ حَتَّى فَتَحْتَ الْأَمِيرَةَ خَزَانَةَ الثِّيَابِ وَالتفتت
لطارق وقالت: مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تَتَخَفِي فِي مَلَابِسِ زَهْرَةَ حَتَّى نَتَحْرَكَ
بِحُرِّيَّةٍ. وَكَانَ عَلَى الْأَمِيرَةِ أَنْ تَرْبِطَ عَلَى جَسَدِ طَارِقِ بَعْضَ الْوَسَائِدِ
حَتَّى لَا تَكُونَ الْمَلَابِسُ فُضْفَاضَةً مُتَهَدِلَةً عَلَيْهِ وَأَخْفَتُ وَجْهَهُ بِنِقَابٍ
أَسْوَدَ، وَسَارَ بِجَوَارِ الْأَمِيرَةِ يَكَادُ أَنْ يَتَعَثَّرَ فِي مَشِيَّتِهِ فِي الْحِذَاءِ
النِسَائِيِّ ذِي الْكَعْبِ الْعَالِي.

وَأخِيرًا وَصَلَ إِلَى كُوخِ عِبُودِ.. طَرَقَ طَارِقُ الْبَابَ الْخَشَبِيَّ طَرَقَتَيْنِ
مُتتاليتين ثُمَّ طَرَقَهُ وَاحِدَةً.. جَاءَ صَوْتُ عِبُودٍ مِنْ خَلْفِ الْبَابِ مُتَسَائِلًا:
هَلِ الطَارِقُ ظَمَانٌ؟ أَجَابَ طَارِقٌ نَعْمَ وَالْجَرَّةُ خَالِيَةٌ.. وَمَا أَنْ فَتَحَ الْبَابَ
حَتَّى انْدَفَعَ طَارِقٌ إِلَى الدَّخْلِ.

وَقَفَ عِبُودٌ مَشْدُوهَاً وَلَمْ يَفْقُ مِنْ ذُهُولِهِ إِلَّا عِنْدَمَا رَفَعَ طَارِقُ النِقَابَ

عن وجهه ولم يتركه طارق يتخبط في حيرته وإنما سرد عليه بسرعة ما حدث في غرفة الأميرة، وظل طارق ممسكاً بيد الأميرة ليطمئنهما، بسرعة وضع عبود خنجره في الحزام المشدود على وسطه أسفل ملابسه، وخرج منطلقاً إلى القصر يتوارى خلف الأشجار المنتشرة بالبستان. أما طارق والأميرة فأخذاً يسيران على مهل وما أن وصلا إلى القصر حتى أزال طارق تنكره بسرعة وصاح في كل رجال القصر وقال: فليعلم الجميع من الآن أن الأميرة ستتوج ملكة لبلاد النهر وبلاد الشلال، وأخذت زهرة تقص عليهم كل ما حدث ليلة أمس، واندفع الخادم العجوز يقص على الجميع ما حدث منذ سنوات طويلة في مخدع الأخ الأكبر.. أذعن الجميع وأطاعوا بما فيهم كبير الوزراء عندما شاهدوا السيوف والخنجر بأيدي كل من يلتف حول الأميرة وطارق.

ظل طارق معها يؤازرها ويحميها حتى استتب لها الأمن، وتسلمت مقاليد حكم البلاد.. وهنا أراد طارق أن يستأذنها في الرحيل إلى بلاده، فتشبتت بيده ونظرت إليه متوسلة.. حقاً.. هل تستطيع الرحيل عني.. أجابها بصوت متهدج حزين: مهما قلت لا أستطيع أن أصف لك مبلغ الألم الذي يعتصر قلبي وأنا أبتعد عن الفراشة الجميلة التي وقعت في حبها من أول يوم وقفت أراقبها خلسة من النافذة وهي تبكي.. تشبتت به أكثر وقالت ولماذا تبتعد؟.. وتبادلا



نظرةً طويلاً ذاتَ معنى. وما هي إلا ساعةٌ واحدةٌ حتى كان خبرُ زواجِ
الأميرة من الجندي الآتي من بلدة الجبل قد عمَّ أرجاء البلاد.. وأقيمت
الاحتفالات وتوج طارق ملكاً يشارك زوجته الملكة في تصريفِ شئونِ
الحكم ويعاونه صديقه عبود الذي اتخذهُ وزيراً له.. وبعد أيام قليلةٍ
كان موكباً رائعاً تتصدره الملكة، يودعُ الملكُ وعبود في سفينةٍ ملكيةٍ
فاخرةٍ مزودةٍ بالخدم والبحارة.

وقفت الملكة تلوحُ بيدها لطارق، وقد تَلَأَّتِ الدموعُ في عينيها وكان
هو الآخرُ يلوحُ لها بإحدى يديه، ويده الأخرى تتحسسُ جيبَ سترته
المحتوية على خصلةٍ من شعرها الأشقر.

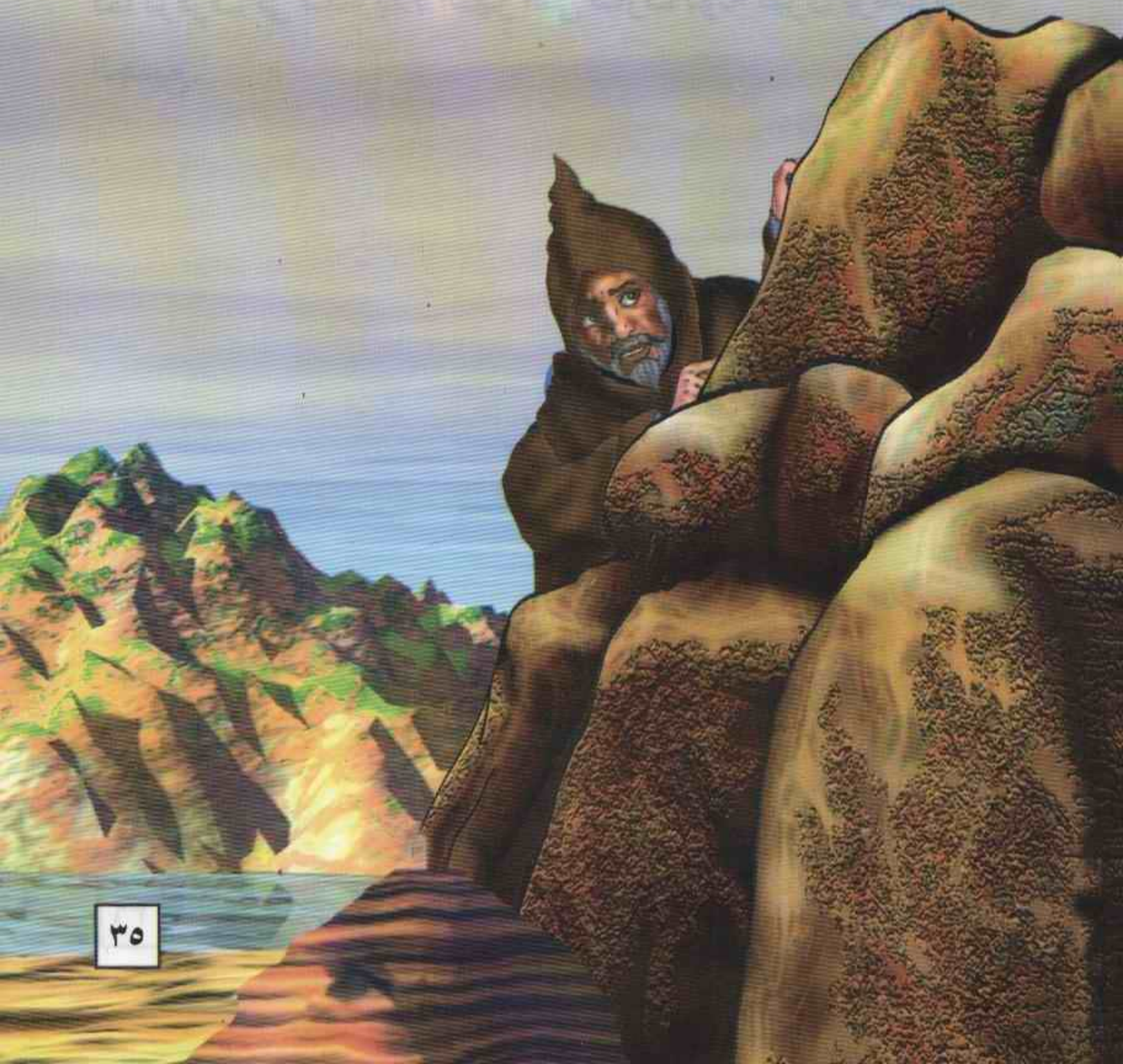
وما أن وصلت السفينةُ إلى النتوءِ الصخري الذي يشبه رأس الثور،
حتى دبَّ الخوفُ في قلب عم عتيق الذي سارع بالاختباء بالممراتِ
المنتشرة هناك، أما البحارة والخدم فقد أخذوا يبتهلون إلى الله
والخوف من الجن والعفاريت يملأ قلوبهم.. ضحك طارق وعبود كثيراً
من جهلهم واعتقادهم في هذه الخرافات.. ثم قفز عبود إلى اليابسة،
وانطلق إلى الممراتِ ممسكاً بمصباحه يُنادي عم عتيق، الذي توارى
خلف أحد الصخور، وربض مستعداً للقتال. فما أن شاهد عبود حتى
رمى خنجره وعانقه غير مُصدق وكلماته تتلاحق:

كدت أن أفقد الأمل في عودتكما لكن لم يطاوعني قلبي على

الرحيل.

وفى الطريق سَرَدَ عليه عبود - بسرعة - ما حدث له ولطارق، فما
أن شاهد طارق حتى صاح فرحاً وعانقه قائلاً: حمداً لله على سلامتك.
الآن يا سيدي الملك لا يجوزُ لعم عتيق المسكين أن يتحدث إليك بهذه
البساطة، ضحك طارق وعانق عم عتيق بقوة وقال: بل يجوزُ أيها
الرجلُ العجوزُ.

وما أن عادوا إلى بلدة الجبل حتى احتفى بهم الملك وجموع الشعب،



وكانت فرحة الشعب عارمةً بإلغاء الحرب، وبزواج طارق من ملكة بلاد النهر وبلاد الشلال، وأقيمت الاحتفالات في البلاد، وأذيع النبا بقيام الوحدة بين بلاد النهر وبلاد الشلال وبلدة الجبل، فسارعت كل البلاد المجاورة بالانضمام إليهم.

وبعد فترة قصيرة، استأذن طارق وعبود الحاكم وغادرا - المكان - إلى بلاد النهر.. وعند اقتراب السفينة، كان موكب الملكة ينتظر عودتهم.. وكانت راية الوحدة الكبرى ترفرف على صاري السفينة، كما ترفرف في سماء بلاد النهر التي صارت دولة كبرى يرهب بأسها الجميع.